الفصل السابع
وسطية القرآن في القضاء والقدر

تمهيد:

هذه مباحث في باب القضاء والقدر، ذلك الباب العظيم، الذي لا شك في أنه من أعظم أبواب العقيدة وأهمها، فهو أحد أركان الإيمان الستة التي وردت في حديث جبريل عليه السلام ولا يؤمن إنسان على الحقيقة حتى يؤمن به، فالإيمان به تمام التوحيد، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: (القدر نظام التوحيد، فمن وحد الله وآمن بالقدر تم توحيده، ومن وحد الله وكذب بالقدر نقض توحيده)[1].

(والقدر هو قدرة الله، كما قال الإمام أحمد رحمه الله)[2].

فالذي يكذب به مكذب لقدرة الله ﷻ ومما يدل على أهميته ما يترتب على الإيمان به من عظيم الثمرات على الأفراد والمجتمعات في الدنيا وفي الآخرة، ومما يدل على أهميته أن كتب العقيدة اهتمت به أيما اهتمام، وأطالت في ذكره، والحديث عنه كالإبانة لابن بطة، والشريعة للآجري، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة واجماعة للالكائي، والحجة في بيان المحجة للأصبهاني وغيرها.

ففهم هذا الباب على الوجه الصحيح والإلمام به - ولو على سبيل الإجمال - من الأهمية بمكان، وقد جاء هذا الباب في القرآن الكريم واضحاً وشرحه النبي ﷺ أتم الشرح، وتلقاه الصحابة عنه فكانوا رضوان الله عليهم أعظم الناس فهماً لحقيقة الإيمان

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٣/ ١١٣).

(٢) المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد (١/ ١٣٥).

بالقدر، فأثر ذلك فيهم أيما تأثير، فكانوا أشجع الناس، وأكرمهم، وأتقاهم، ثم دب في هذه الأمة داء الأمم، وقد ركبت سنن من كان قبلها، فدخلت الفلسفات اليونانية والهندية وعقائد اليهود المحرفة والنصارى الزائغة إلى بلاد المسلمين، وظهرت بدعة القدرية في البصرة ودمشق، فوقع أول شرك في الأمة وهو نفي القدر، فتصدى علماء السنة لتلك البدعة وبينوا عوارها ودحضوا باطلها وأظهروا الحق ونشروه.

ومما لا شك فيه أن باب القدر أعوص أبواب العقيدة ـ فلقد حار النظار والعقلاء قديماً وحديثاً ـ في شأنه وفي فهم حقيقته، فلم يصلوا إلى اليقين والصواب، ذلك لأنهم التمسوا الهدى في غير مظانه، فحاروا وحيروا، وتعبوا وأتعبوا. وقد وفق الله ﷻ أهل السنة والجماعة لفهم هذا الباب، وذلك لأتباع ما جاء في الكتاب والسنة وآثار السلف الصالح، إذ لا يمكن لأحد أن يفهم هذا الباب على وجه التفصيل فهماً صحيحاً ـ إلا كما فهمه أهل السنة والجماعة ـ سلف هذه الأمة الصالح، وإذا نظرت إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ انتظم العقد في هذا الباب وظهرت ملامح الوسطيَّة فيه وسلمت من الإفراط والتفريط والغلو والجفا والبعد عن الصراط المستقيم. وتجد القرآن الكريم والسنة المطهرة ترشدنا إلى أبواب يستطيع العقل البشري أن يجول فيها في هذا الباب وتنهانا عن أمور يستحيل العقل أن يصل إليها.

فالأمور التي يستطيع العقل البشري أن يجول فيها ويفهمها من منطق النصوص، كالبحث في مراتب القدر وأقسام التقدير، وخلق أفعال العباد إلى غير ذلك من مباحث القدر.

والأمور التي نهانا الشرع عن الخوض فيها مثل: الخوض في القدر بالباطل وبلا علم ولا دليل، والاعتماد في معرفة القدر على العقل البشري القاصر بعيداً عن هدي الكتاب والسنة؛ لأن العقل البشري لا يستقل بمعرفة ذلك على وجه التفصيل، وكذلك البحث عن الجانب الخفي في القدر الذي هو سر الله في خلقه، وكذلك التنازع في القدر الذي يؤدي إلى اختلاف الناس فيه وافتراقهم، فهذا مما نهينا عنه. وبذلك يتضح للباحث منهج الوسطيَّة في هذا الباب إذا ألَمَّ بأطراف الموضوع، معتمداً على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

المبحث الأول
تعريف القضاء والقدر والعلاقة بينهما

أولاً: القدر في اللغة:

(مصدر قدر يقدر قدراً وقد تسكن داله)[١].

قال ابن فارس: (قدر: القاف والدال والراء أصل صحيح يدل على مبلغ الشيء وكنهه ونهايته؛ فالقدر مبلغ كل شيء، يقال: قدره كذا أي مبلغه، وكذلك القدر، وقدرت الشيء أقدره وأقدر من التقدير)[٢].

والقدر: محركة: القضاء والحكم، وهو ما يقدره ﷻ من القضاء، ويحكم به من الأمور.

والتقدير: التروية والتفكير في تسوية أمر، والقدر كالقدر، وجميعها جمعها أقدار[٣].

والقدر في الاصطلاح: (تقدير الله للكائنات حسبما سبق به علمه، واقتضته حكمته[٤].

أو هو: (ما سبق به العلم وجرى به القلم، مما هو كائن وأنه ﷻ قدر مقادير الخلائق، وما يكون من الأشياء قبل أن تكون في الأزل، وعلم ﷻ أنها ستقع في أوقات معلومة عنده ـ تعالى ـ وعلى صفات مخصوصة، فهي تقع على حسب ما قدرها)[٥].

ثانياً: القضاء في اللغة:

أ ـ القضاء في اللغة:

(هو الحكم والصنع، والختم، والبيان، وأصله القطع، والفصل، وقضاء الشيء،

---

(١) النهاية في غريب الحديث لابن الأثير، (٤/ ٢٢).
(٢) معجم مقاييس اللغة، كتاب القاف، باب القاف والدال، (٥/ ٦٢).
(٣) القاموس المحيط فصل القاف، مادة قدر (٥٩١).
(٤) رسائل في العقيدة للشيخ ابن عثيمين ﷺ (٣٧).
(٥) لوامع الأنوار البهية للسفاريني، (١/ ٣٤٨).

وإحكامه، وإمضاؤه، والفراغ منه فيكون بمعنى الخلق)[١].

ب ـ العلاقة بين القضاء والقدر:

١ ـ قيل: (المراد بالقدر التقدير، وبالقضاء الخلق، كقوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ (فصلت: ١٢) أي خلقهن، فالقضاء والقدر أمران متلازمان، لا ينفك أحدهما عن الآخر، لأن أحدهما بمنزلة الأساس وهو القدر، والآخر بمنزلة البناء وهو القضاء، فمن رام الفصل بينهما فقد رام هدم البناء ونقضه)[٢].

٢ ـ وقيل العكس: (فالقضاء هو العلم السابق الذي حكم الله به في الأزل، والقدر هو وقوع الخلق على وزن الأمر المقضي السابق)[٣].

قال ابن حجر العسقلاني: (وقالوا أي العلماء: القضاء هو الحكم الكلي الإجمالي في الأزل، والقدر جزئيات ذلك الحكم وتفاصيله)[٤].

٣ ـ قيل: إذا اجتمعا افترقا بحيث يصبح لكل واحد منهما مدلول بحسب ما مر في القولين السابقين، وإذا افترقا اجتمعا، بحيث إذا أفرد أحدهما دخل فيه لآخر[٥].

قوله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ (التوبة: ٤٧).

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ (الأنعام: ٢٨) وروى البخاري في صحيحه عن ابن عباس ﷺ قال سئل النبي ﷺ عن أبناء المشركين، فقال: «**الله أعلم بما كانوا عاملين**»[٦].

وقال ﷺ: «**ما منكم من نفس إلا وقد علم منزلها من الجنة والنار**»[٧].

---

(١) انظر: معجم مقاييس اللغة، كتاب القاف، باب القاف والضاد، (٥/ ٩٩).
(٢) النهاية في غريب الحديث (٤/ ٧٨).
(٣) البخاري مع الفتح، كتاب القدر، (١١/ ٤٨٦).
(٤) انظر: الدرر السنية في الأجوبة النجدية (١/ ٥١٢ ـ ٥١٣).
(٥) البخاري مع الفتح، كتاب القدر، باب الله أعلم بما كانوا عاملين (١١/ ٥٠٢) رقم الحديث (٦٥٩٧).
(٦) أخرجه مسلم، كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي، (٤/ ٢٠٣٧)، رقم الحديث (٢٦٤٧).
(٧) مسلم، كتاب القدر، باب حجاج آدم موسى، (٤/ ٢٤٤، رقم ٢٦٥٣).

المبحث الثاني
الإفراط والتفريط في باب القدر

قد ضل في باب القدر فرق شتى من الناس، ومنشأ ضلالهم أتباعهم للهوى ونظرهم إلى النصوص بعين عوراء فيأخذون ما وافق أهواءهم، ويعمون، أو يتعامون عن غيره، ومن أشهر الفرق التي ضلت في هذا الباب ما يلي:

١ ـ الفلاسفة:

الذين أنكروا (علمه تعالى بالجزئيات، وقالوا إنه يعلم الأشياء على وجه كلي ثابت، وحقيقة قولهم أنه لا يعلم شيئاً، فإن كل ما في الخارج هو جزئي)[١].

وقد تأثر اليهود والنصارى بالفلسفة القديمة وتجد في كتبهم المحرفة ما يفيد إنكار علم الله تعالى كما في سفر التكوين[٢] حيث زعم اليهود أن الله تعالى: (لا يعلم الغيب ويحتاج علامات يميز بها بني إسرائيل من غيرهم، فوضع الدم علامة على بيوت بني إسرائيل ليميزها عن بيوت المصريين حتى لا يهلكهم)[٣].

وأما النصارى فقد جعلوا المخلوق إلهاً ونفوا عن إلٰههم أن تكون له إرادة ومشيئة وعلم بما يحصل له أو لمخلوقاته، تعالى الله عن قولهم علوّاً كبيراً[٤] وهذا بسبب بُعْدهم عن الكتب المقدسة الصحيحة وتأثيرهم بالفلسفات الباطلة، ويكفي في الرد عليهم قوله تعالى:

﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ (الأنعام: ٥٩).

٢ ـ من يعتقدون تأثير الكواكب والأسماء والأبراج:

كحال الذين ينظرون في النجوم والأسماء، ليستطلعوا من خلالها أسرار القدر، فتجدهم يقولون: إذا ولد فلان في البرج الفلاني أو كان يحمل الاسم الفلاني فسيصيبه

(١) درء تعارض العقل والنقل (٩/ ٣٩٧).
(٢) سفر التكوين، إصحاح (١٢)، فقرة (١٢ ـ ١٣).
(٣) وسطيَّة أهل السنة بين الفرق (٢٤٩).
(٤) الحكمة في الدعوة إلى الله (٤٤٤).

كذا وكذا في يوم كذا وكذا، ومما يقولون ـ أيضاً ـ من اسمك تعرف حظك، ومن شهر ميلادك تعرف حظك، ونحو ذلك من هذا الهذيان والتخرص والرجم بالغيب، فهذا ضلال في باب القدر، لأن القدر غيب والغيب لا يعلمه إلا الله ﷻ.

٣ ـ غلاة الصوفية:

الذين غلو في الجبر: (ممن يزعمون الترقي في مقام الشهود للحقيقة الكونية، والربوبية الشاملة، فيرون كل ما يصدر من العبد من ظلم، وكفر، وفسوق هو طاعة محضة لأنها تجري وفق ما قضاه الله وقدره وكل ما قضاه وقدره فهو محبوب لديه، مرضي عنده، فإذا كان قد خالف أمر الشاعر بارتكابه هذه المحظورات ـ فقد أطاع إرادة الله، ونفذ مشيئته، فمن أطاع الله في قضائه وقدره هو كمن أطاعه في أمره ونهيه كلاهما قد قام بحق العبودية لله)[١].

(ومن ثم فلا لوم، ولا تثريب، بل الكل مطيع بفعله لإرادة ربه، فصححوا بذلك إيمان فرعون وعبدة العجل، واليهود والنصارى والمجوس)[٢].

كما صرح بذلك ابن عربي[٣] الصوفي بقوله:

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي ... إذا لم يكن ديني إلى دينه دانِ
لقد صار قلبي قابلاً كل صورة ... فمرعى لغزلان ودير لرهبان
أدين بدين الحب أنَّى توجهت ... وألواح توراة ومصحف قرآن
وبيت لأوثان وكعبة طائف ... ركائبه فالحب ديني وإيمان[٤]

وكقول عبد الكريم الجيلي[٥]، وهو من أهل وحدة الوجود:

---

(١) شرح نونية ابن القيم، للهراس (١/ ٣٧٢).
(٢) المعتزلة بين القديم والحديث، لمحمد عبده، طارق عبد الحكيم، (٥٨).
(٣) هو أبو بكر محمد بن علي بن محمد العربي الحاتمي الطائي المعروف بمحيي الدين بن عربي، شيعي سوء، كذاب، من أهل وحدة الوجود، قال أشياء منكرة عدها المحققون مروقاً وزندقة، مات سنة ٦٣٨هـ، انظر: ميزان الاعتدال (٣/ ٦٥٩)، رقم ترجمته (٦٦٠).
(٤) رسائل وفتاوى في ذم ابن عربي الصوفي، د. موسى الدويش، (٧٤).
(٥) هو عبد الكريم بن إبراهيم بن عبد الكريم الجيلي، ابن سبط عبد القادر الجيلاني، من علماء المتصوفة له كتب كثيرة، منها الإنسان الكامل، والمناظرة الإلهية، توفي عام ٨٣٢هـ. انظر: الأعلام للزركلي (٤/ ١٧٥ ـ ١٧٥).

وأسلمت نفسي حيث أسلمني الهوى ... وما لي عن حكم الحبيب تنازع
فطوراً تراني في المساجد راكعاً ... وإني طوراً في الكنائس راتع
إذا كنت في حكم الشريعة عاصياً ... فإني علم الحقيقة طائع[1]

وكما قال أحدهم:

أصبحت منفصلاً بما يختاره ... مني ففعلي كله طاعات

وهذا المذهب من أخبث المذاهب، ولا يشك بكفر أصحابه؛ بل هو من أقبح أنواع الكفر قال ابن تيمية رحمه الله: (فإن من احتج بالقدر وشهود الربوبية العامة لجميع لمخلوقات، ولم يفرق بين المأمور، والمحظور، والمؤمنين والكفار، وأهل الطاعة، وأهل المعصية، لم يؤمن بأحد من الرسل، ولا بشيء من الكتب، وكان عنده إبليس وآدم سواء، ونوح وقومه سواء، وفرعون وموسى سواء، والسابقون الأولون وكفار مكة سواء)[2]. فلا يشك عاقل في كفره.

٤ ـ الجبرية:

(وهم الذين غلو في إثبات القدر حتى أنكروا أن يكون للعبد فعل ـ حقيقة ـ لا بل هو في زعمهم لا حرية له ولا فعل، كالريشة في مهب الريح، وإنما تسند إليه الأفعال مجازاً، فيقال: صلى وصام، وقتل، وسرق، كما يقال طلعت الشمس، وجرت الريح، ونزل المطر، فاتهموا ربهم بالظلم، وتكليف العباد بما لا قدرة لهم عليه ومجاراتهم على ما ليس من فعلهم، واتهموه بالعبث في تكليف العباد، وأبطلوا الحكمة في الأمر والنهي ألا ساء ما يحكمون)[3].

وهؤلاء في الحقيقة يزعمون أن الله هو الفاعل الحقيقي لأفعالهم، بخلاف ما عليه أهل السنة، الذين يقولون: إن الله هو الخالق والعبد هو الفاعل، ولذا ترتب على فعله الثواب والعقاب، وهؤلاء ـ الجبرية ـ يسمون بالقدرية المشركية، لأنهم شابهوا المشركين في قولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ (الأنعام: ١٤٨) وهذا كلام ظاهر البطلان.

---

(١) هذه هي الصوفية، عبد الرحمٰن الوكيل، (٩٦).
(٢) مجموع الفتاوى (٨/ ١٠٠).
(٣) انظر: شرح نونية ابن القيم للهراس (١/ ٣٧٢).

٥ ـ القدرية:

وهم أتباع معبد الجهني[١] وغيلان الدمشقي[٢]، وأتباع واصل بن عطاء[٣]، وعمرو بن عبيد[٤] من المعتزلة، ومن وافقهم هؤلاء هم القدرية، وقولهم في القدر: إن العبد مستقل بعمله في الإرادة والقدرة، وليس لمشيئة الله تعالى وقدرته في ذلك أثر، ويقولون: إن أفعال العباد ليست مخلوقة لله، وإنما العباد هم الخالقون لها ويقولون: (إن الذنوب الواقعة ليست واقعة بمشيئته الشاملة، وغلاتهم ينكرون أن يكون الله قد علمها، فيجحدون بمشيئته الشاملة، وقدرته النافذة، ولهذا سموا مجوس هذه الأمة، لأنهم شابهوا المجوس الذين قالوا: إن للكون إلهين: إله النور: وهو خالق الخير، وإله الظلمة: وهو خالق الشر.

والقدرية جعلوا لله شريكاً في خلقه فزعموا أن العباد يخلقون أفعالهم، واستدلوا استدلالاً أعوراً ببعض الآيات، كما في قوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾ (التكوير: ٢٨).

وقوله: ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾ (الكهف: ٢٩).

وأوّلوا ما عدا ذلك مما يخالف مذهبهم كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ (التكوير: ٢٩) ومنشأ ضلال هؤلاء في البداية أنهم أرادوا

---

(١) هو المبتدع القدري معبد بن عبد الله بن علي الجهني البصري أول من قال بالقدر وكان ممن سمع الحديث عن ابن عباس وعمران بن حصين وانتقل إلى المدينة، ونشر مذهبه فيها وكان قد تلقاه من رجل نصراني يسمى سوسن، وأخذ عن معبد غيلان الدمشقي، قتله عبد الملك بن مروان وصلبه، سنة ٨٠هـ، الكامل لابن الأثير: (٤/ ٧٥).

(٢) هو غيلان بن مسلم الدمشقي أبو مروان من البلغاء الذين أضلوا الناس، ثاني من تكلم في القدر ودعا إليه، وإليه تنتسب فرقة الغيلانية من القدرية، أفتى الإمام الأوزاعي بقتله فصلب على باب كيسان بدمشق بعد سنة (١٠٥هـ). البداية والنهاية (٩/ ٣٤ ـ ٣٥).

(٣) واصل بن عطاء البصري، الغزال المتكلم البليغ المتشدق، الذي كان يلثغ بالراء فلبلاغته هجر الراء وتجنبها في خطابه، قال عنه أبو الفتح الأزدي: رجل سوء كافر، كان من أجلاء المعتزلة مات (١٣١هـ) انظر: ميزان الاعتدال (٤/ ٣٢٩).

(٤) عمرو بن عبيد بن باب، أبو عثمان البصري المعتزلي القدري، اعتزل مجلس الحسن هو وجماعة معه، سموا المعتزلة، وكان يشتم الصحابة ويكذب في الحديث وهماً لا تعمداً، مات سنة ١٤٣هـ. انظر ميزان الاعتدال (٣/ ٢٧٣).

تنزيه الله ﷻ عن الشر فوقعوا في نفي القدر، ويكفي في الرد عليهم قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ (الصافات: ٩٦).

المبحث الثالث
ظهور بدعتي نفي القدر والقول بالجبر

في أواخر عصرِ الصحابة رضوان الله عليهم، كانت البداية الحقيقية لنشأة الاختلاف والكلام في القدر إذ نبغ في وقتهم معبد الجهني الذي قال بنفي القدر، كما روى الإمام مسلم عن يحيى بن معمر[(١)].

قال: (كان أول من قال في القدر بالبصرة معبد الجهني، ثم ذكر يحيى أنه لقي عبد الله بن عمر بن الخطاب ﷺ فقال: يا أبا عبد الرحمٰن إنه قد ظهر قبلنا ناس يقرؤون القرآن ويتقفرون العلم[(٢)]... وإنهم يزعمون أن لا قدر، وأن الأمر أنف[(٣)].

فقال ابن عمر منكراً عليهم ذلك: فإذا لقيت ذلك فأخبرهم أني برىء منهم، وأنهم برآء مني، والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه، ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر[(٤)].

ومعبد إنما تلقى هذه المقالة عن رجل نصراني كان قد أسلم ثم تنصر مرة أخرى، فكان معبد أول من نشر ذلك ونادى به وأظهره ولا سيما بالبصرة قال الإمام الأوزاعي[(٥)] رحمه الله: (أول ممن نطق في القدر رجل تنصر، فأخذ عنه معبد الجهني وأخذ

---

(١) يحيى بن يعمر البصري نزل مرو وقاضيها ثقة فصيح، وكان يرسل، مات قبل المائة. انظر: ابن حجر في التقريب: (٢/ ٣٦١).

(٢) يطلبونه ويتبعونه.

(٣) أنف: أي مستأنف، لم يسبق به قدر ولا علم من الله، وإنما يعلمه بعد وقوعه. انظر: صحيح مسلم شرح النووي (١/ ١٥٦).

(٤) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإسلام والإيمان، (١/ ٣٦).

(٥) هو الإمام العابد الحجة الثقة عبد الرحمٰن بن عمرو الأوزاعي الفقيه روى عن كثير من التابعين، وكان رأساً في العلم والعمل والأتباع، بارعاً في الكتابة، كان يكثر من الصلاة والعبادة، وقيام الليل. توفي في بيروت سنة ١٥٨هـ. انظر تهذيب التهذيب (٦/ ٢٣٨)، شذرات الذهب (٤/ ٣٤١).

غيلان عن معبد)[١].

فهؤلاء هم أقطاب القدرية الأوائل، وكان مذهبهم في القدر يدور على أمرين:

أحدهما: نفي علم الله سبحانه بالأشياء قبل وقوعها. والثاني: نفي خلقه لأفعال العباد، وأنها ليست واقعة بقدره، وهؤلاء هم غلاة القدرية الأوائل، وقد انقرض مذهبهم والمتأخرون منهم يثبتون علم الله سبحانه بالأشياء قبل وقوعها ونفوا خلقه لأفعال العباد.

قال القرطبي رحمه الله: (قد انقرض هذا المذهب ـ أي مذهب غلاة القدرية ـ لا نعرف أحداً ينسب إليه من المتأخرين قال: والقدرية اليوم مطبقون على أن الله عالم بأفعال العباد قبل وقوعها وإنما خالفوا السلف في زعمهم بأن أفعال العباد مقدورة لهم واقعة منهم على جهة الاستقلال وهو مع كونه مذهب باطل أخف من الأول)[٢].

وهذا المذهب هو الذي تبنته المعتزلة وجعلته أصلاً من أصولها التي قام عليها كيان الاعتزال، وبسبب قولهم به عرفوا بالقدرية لنفيهم القدر، وفي مقابل القول بنفي القدر، ظهر قول مضاد ومعاكس له وهو القول بالجبر، ومضمونه أن الإنسان مجبور على أفعاله، وأنه لا يقدر منها على شيء، فهو كالريشة في مهب الريح. وأول من عرف عنه القول بذلك في الإسلام الجهم بن صفوان[٣]. الذي قال من مقالته: (أنه لا حد في الحقيقة إلا لله وحده، وأنه هو الفاعل وأن الناس ما تنسب إليهم إفعالهم على المجاز كما يقال: تحركت الشجرة ودار الفلك، وزالت الشمس وإنما فعل ذلك بالشجرة والفلك والشمس الله ـ سبحانه...).

ومن خلال مقالتي الطائفتين، يتبين لنا أن القدرية النفاة مفرطون في هذا الباب، مقتصرون فيه بما سلبوا الله قدرته وقولهم: إن العباد هم الخالقون لأفعالهم، كما يتضح لنا مدى غلو الجهمية الجبرية في إثبات القدر حتى سلبوا الإنسان مشيئته وإرادته وعَدُّوه بمنزلة الجماد، وأنه لا فعل له في الحقيقة، وأنه مجبور على أفعاله غير مختار فيها، وكلا الفريقين من الإفراط والتفريط على شفا جرف هار، والطريق المستقيم القصد. فكل منهما

---

(١) الآجري، الشريعة، (٣٣٤٣)، اللالكائي (١/ ٣٤١).

(٢) وسطيَّة أهل السنة بين الفرق (٣٧١).

(٣) جهم بن صفوان السمرقندي أبو محرز من موالي بني راسب، رأس الجهمية الضال المبتدع، هلك في زمن صغار التابعين، وقد زرع شرّاً عظيماً. انظر: ميزان الاعتدال (١/ ٤٤٦).

قد أخطأ، وضل في هذا الباب، وإن كان هذا لا يمنع أن يكون مع كل منهما بعض الحق والصواب، لكن الحق المحض والصواب المحض ليس هو في قول واحد منهما، وإنما هو في قول خارج عن قولهما جمع ما عند كل من الفريقين من حق وصواب وخلا مما وقع فيه الفريقان من خطأ وضلال، ذلك هو قول أهل السنة والجماعة في هذا الباب، الذي هو حق بين الباطلين، وهدى بين الضلالتين، به كانوا وسطاً بين إفراط وتفريط الفريقين في هذا الباب، كما سنوضح ذلك في الصفحات القادمة.

المبحث الرابع
مجمل اعتقاد أهل السنة والجماعة في باب القدر

سئل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله سؤالاً عن القدر فأجاب عنه إجابة مطولة ضمنها مجمل اعتقاد أهل السن والجماعة في هذا الباب ومما قاله: (مذهب أهل السنة والجماعة في هذا الباب وغيره ما دل عليه الكتاب والسنة، وكان عليه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، وهو أن الله خالق كل شيء، وربه ومليكه، وقد دخل في ذلك جميع الأعيان القائمة بها، من أفعال العباد، وغير أفعال العباد.

وأنه ـ سبحانه ـ ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فلا يكون في الوجود شيء إلا بمشيئته، وقدرته، لا يمتنع عليه شيء شاءه، بل هو قادر على كل شيء ولا يشاء شيئاً إلا وهو قادر عليه، وأنه ـ سبحانه ـ يعلم ما كان، وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون.

وقد دخل في ذلك أفعال العباد، وغيرها وقدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلقهم، وَقَدَّر آجالهم، وأرزاقهم، وأعمالهم، وكتب ذلك، وكتب ما يصيرون إليه من سعادة، وشقاوة، فهم يؤمنون بخلقه لكل شيء، وقدرته على كل شيء، ومشيئته لكل ما كان، وعلمه بالأشياء قبل أن تكون، وتقديره لها، وكتابته إياها قبل أن تكون)[1].

إلى أن قال: (وسلف الأمة وأئمتها متفقون أيضاً على أن العباد مأمورون بما أمرهم الله به منتهيون عما نهاهم عنه، ومتفقون على الإيمان بوعده، ووعيده الذي نطق به الكتاب والسنة، ومتفقون على أنه لا حجة لأحد على الله في واجب تركه، ولا محرم

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (٨/ ٤٤٩ ـ ٤٥٠).

فعله، بل لله الحجة البالغة على عباده)[١].

وقال: (ومما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها ـ مع إيمانهم بالقضاء والقدر، وأن الله خالق كل شيء، وأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه يضل من يشاء، ويهدي من يشاء ـ أن العباد لهم مشيئة وقدرة، يفعلون بمشيئتهم، وقدرتهم ما أقدرهم الله عليه، مع قولهم: إن العباد لا يشاؤون إلا أن يشاء الله[٢].

كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ ۝٥٤ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝٥٥ وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ ۝٥٦﴾ (المدثر: ٥٤ ـ ٥٦).

المبحث الخامس
الأدلة من الكتاب والسنة والإجماع والفطرة والعقل في باب القدر

دل على هذا الركن العظيم من أركان الإيمان الكتاب، والسنة والإجماع، والفطرة، والعقل، والحس.

أولاً من القرآن: أما الأدلة من القرآن العظيم: فكثيرة جداً منها قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا مَّقۡدُورٗا﴾ (الأحزاب: ٣٨) وقال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ۝٤٩﴾ (القمر: ٤٩) وقال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا﴾ (الفرقان: ٢).

ثانياً السنة: أما الأدلة من السنة: فكما قال عليه الصلاة والسلام، كما في حديث جبرائيل عليه السلام: «وتؤمن بالقدر خيره وشره»[٣].

وروى مسلم في الصحيح عن طاوس[٤] قال: (أدركت ناساً من أصحاب

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (٨/ ٤٥٢).
(٢) المرجع السابق (٨/ ٤٥٩).
(٣) مسلم، كتاب الإيمان، باب ما جاء في القدر (١/ ٣٨ رقم ٨).
(٤) هو الإمام التابعي طاوس بن كيسان اليماني، أبو عبد الرحمٰن الجندي، أحد الأعلام علماً وأدباً وعملاً، أخذ عن جماعة من الصحابة، وأخذ عنه جماعة. توفي سنة ١٠٦هـ. العبر (١/ ٩٩). انظر: تهذيب التهذيب (٥/ ٨).

رسول الله ﷺ يقولون: كل شيء بقدر، قال وسمعت عبد الله بن عمر يقول: كل شيء بقدر حتى العجز والكيس أو الكيس والعجز)[١].

وقال ﷺ: **«وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا كان كذا وكذا؛ ولكن قل: قَدَّرَ اللَّهُ وما شاء فعل»**[٢].

ثالثاً الإجماع: أما الإجماع: (فقد أجمع المسلمون على وجوب الإيمان بالقدر خيره وشره من الله)[٣].

رابعاً: الفطرة: أما الفطرة: فإن الإيمان بالقدر أمر معلوم بالفطرة قديماً وحديثاً ولم ينكره إلا الشواذ من الأمم، ولم يقع الخطأ في نفي القدر وإنكاره، وإنما وقع في فهمه على الوجه الصحيح، ولهذا قال سبحانه عن المشركين: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ (الأنعام: ١٤٨).

فهم أثبتوا المشيئة لله لكنهم احتجوا بها على الشرك، ثم بين سبحانه أن هذا هو شأن من كان قبلهم، كما في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ (الأنعام: ١٤٨) وكانت العرب في الجاهلية تعرف القدر ولا تنكره، ولم يكن هناك من يرى أن الأمر مستأنف، وهذا ما نجده مثبوتاً في أشعارهم، كما في قول عنترة[٤]:

يا عبل أين من المنية مهربي ... إن كان ربي في السماء قضاها؟![٥]

وكما في قول طرفة[٦]:

فلو شاء ربي كنت قيس بن خالد[٧] ... ولو شاء ربي كنت عمرو بن مرثد[٨]

---

(١) مسلم، كتاب القدر، باب كل شيء بقدر، (٤/ ٢٠٤٥ رقم ٢٦٥٥).
(٢) مسلم، كتاب القدر، باب الأمر بالقوة وترك العجز، (٤/ ٢٠٥٢ رقم ٢٦٦٤).
(٣) انظر: الإيمان بالقضاء والقدر، لمحمد إبراهيم الحمد (٣٦).
(٤) هو عنترة بن شداد العبسي، من شعراء الجاهلية من أصحاب المعلقات، اشتهر بشجاعة فائقة وأشعار نادرة. انظر: شرح المعلقات للزوزني (١١٨).
(٥) ديوان عنترة (٧٤).
(٦) هو طرفة بن العبد بن سفيان، من شعراء الجاهلية، ومن أصحاب المعلقات، قتل وهو ابن عشرين عاماً. انظر: شرح المعلقات (٧٨).
(٧) سيد من سادات العرب، شريف النسب، عظيم الحسب، كثير الآل والأولاد.
(٨) سيد من سادات العرب، اشتهر بكثرة المال ونجابة الأولاد، وشرف النسب.

وقول لبيد[١]:

صادفن منها غرة فأصبنها إن المنايا لا تطيش سهامها[٢]

خامساً العقل: أما دلالة العقل فهي: أن العقل الصحيح يقطع أن الله هو خالق هذا الكون، ومدبره، ومالكه، ولا يمكن أن يوجد على هذا النظام البديع والتناسق المتآلف، والارتباط الملتحم بين الأسباب والمسببات هكذا صدفة، إذ الموجود صدفه ليس له نظام في أصل وجوده، فكيف يكون منتظماً حال بقائه وتطوره؟ فإذا تقرر عقلاً أن الله هو الخالق لزم ألا يقع شيء في ملكه إلا وقد شاءه وقدره.

المبحث السادس
مراتب القدر وأركانه

ومن وسطيَّة القرآن الكريم وحكمته وإرشاده إلى الصراط المستقيم بيانه مراتب القدر والتي تسمى عند العلماء أحياناً بأركانه، وضبطها وفهمها يعين المسلم على فهم باب القدر، ولا يتم الإيمان بالقدر إلا بتحقيقها كلها، لأن بعضها مرتبط ببعض فمن أقر بها جميعاً اكتمل إيمانه بالقدر، ومن انتقص واحداً منها أو أكثر اختل إيمانه بالقدر وهذه الأركان هي:

١ ـ العلم. ٢ ـ الكتابة. ٣ ـ المشيئة. ٤ ـ الخلق.

المرتبة الأولى:

وهو الإيمان بأن الله عالم بكل شيء جملة وتفصيلاً، أزلاً، وأبداً سواء كان ذلك مما يتعلق بأفعاله، أو بأفعال عباده، فعلمه محيط بما كان، وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون عن علمه الموجود، والمعدوم، والممكن، والمستحيل، ولا يعزب عن عمله مثقال ذرة في السمٰوات ولا في الأرض، وقد علم جميع خلقه قبل أن يخلقهم، فعلمهم وأرزاقهم، وآجالهم وأقوالهم، وأعمالهم، وجميع حركاتهم،

---

(١) هو لبيد بن ربيعة بن مالك العامري مخضرم من المعمرين. ومات في خلافة معاوية وله معلقة مشهورة. انظر شرح المعلقات (٢٢٦).

(٢) ديوان لبيد بن ربيعة العامري (١٧١).

وسكناتهم، وأهل الجنة.

وهذه المرتبة ـ وهي العلم السابق ـ اتفق عليها الرسل من أولهم إلى آخرهم، واتفق عليها جميع الصحابة، ومن تبعهم من هذه الأمة، وخالفهم مجوس هذه الأمة ـ القدرية الغلاة ـ والأدلة على هذه المرتبة كثيرة جدّاً منها:

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ﴾ (الحشر: ٢٢).

وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ﴾ (البقرة: ٢٥٥).

وقوله: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ (سبأ: ٣).

المرتبة الثانية الكتابة:

وهي أمان بأن الله كتب ما سبق علمه من مقادير الخلائق إلى يوم القيامة في اللوح المحفوظ، وقد أجمع الصحابة، والتابعون، وجميع أهل السنة والحديث على أن كل ما هو كائن إلى يوم القيامة فهو مكتوب في أم الكتاب التي هي اللوح المحفوظ، والذكر، والإمام المبين، والكتاب المبين، والأدلة على هذه المرتبة كثيرة من الكتاب والسنة، منها قوله تعالى:

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ (الحج: ٧٠). وقوله: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ (التوبة: ٥١).

وقال عن محاجة موسى عليه السلام لفرعون: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾ (طه: ٥١ ـ ٥٢).

وروى مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السمٰوات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه على الماء**» وقال النبي ﷺ: «**ما من نفس منفوسة إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة أو النار، إلا وقد كتبت شقية أو سعيدة**»[1].

(١) مسلم، كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي، (٤/٢٠٣٨ رقم ٢٦٤٦).

المرتبة الثالثة: المشيئة:

وهذه المرتبة تقتضي الإيمان بمشيئة الله النافذة، وقدرته الشاملة، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا حركة، ولا سكون، ولا هداية، ولا إضلال إلا بمشيئته، وهذه المرتبة قد دل عليها إجماع الرسل من أولهم إلى آخرهم، وجميع الكتب المنزلة من عند الله، والفطرة التي فطر الله الناس عليها، وأدلة العقل، والنصوص الدالة على هذا الأصل كثيرة جداً، من الكتاب والسنة. منها قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ (القصص: ٦٨) وقوله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾ (الكهف: ٢٣ ـ ٢٤).

وقال ﷺ: «**إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمٰن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء**»، ومشيئة الله النافذة، وقدرته الشاملة يجتمعان فيما كان، وسيكون يفترقان فيما لم يكن، ولا هو كائن، فما شاء الله كونه فهو كائن بقدرته لا محالة، وما لم يشأ كونه فإنه لا يكن لعدم مشيئته، لا لعدم قدرته عليه، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ (البقرة: ٢٥٣) فعدم اقتتالهم ليس لعدم قدرة الله، ولكن لعدم مشيئته ذلك ومثاله قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ (الأنعام: ٣٥) وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾ (الأنعام: ١٠٧).

مرتبة الخلق:

وهذه المرتبة تقتضي الإيمان بأن جميع الكائنات مخلوقة لله بذواتها، وصفاتها، وحركاتها، وبأن كل من سوى الله مخلوق موجد من العدم، كائن بعد أن لم يكن، وهذه المرتبة دلت عليها الكتب السماوية، وأجمع عليها الرسل عليهم الصلاة والسلام، واتفقت عليها الفطر، والعقول السليمة، والأدلة على هذه المرتبة كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ (الزمر: ٦٢) وقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (تبارك: ٢).

وأخرج البخاري في خلق أفعال العباد عن حذيفة[1] رضي الله عنه قال قال النبي ﷺ:

---

(١) هو حذيفة بن اليمان العبسي من نجباء الصحابة وهو صاحب سر النبي ﷺ في المنافقين كان يسأل رسول الله ﷺ عن الشر لتجنبه، شهد مع النبي ﷺ أحد وشهد فتوح العراق، وتوفي بالمدائن (٣٦هـ). انظر: أسد الغابة (١/ ٤٦٨)، سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٦١).

«إن الله يصنع كل صانع وصنعته»[١].

هذه هي مراتب القدر الأربع التي لا يتم الإيمان بالقدر إلا بها.

وأفعال العباد داخله في عموم خلقه تعالى، ولا يخرجها شيء من عموم قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ فالأفال هي من الله خلقاً وإيجاداً وتقديراً، وهي من العباد فعلاً وكسباً، فالله هو الخالق لأفعالهم، وهم الفاعلون لها، فنؤمن بجميع نصوص الكتاب والسنة الدالة على شمول خلق الله، وقدرته لكل شيء من الأعمال والأوصاف، كما نؤمن بنصوص الكتاب والسنة الدالة على أن العباد هم الفاعلون حقيقة للخير والشر، وعلى هذا اتفق أهل السنة والجماعة»[٢].

ومن الأدلة الصريحة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ (الصافات: ٩٦) قال المفسرون في معنى (ما) في الآية وجهان:

أحدهما: أن تكون بمعنى المصدر، فيكون المعنى والله خلقكم وعملكم.

والثاني: بمعنى الذي، فيكون المعنى، والله خلقكم وخلق الذي تعملونه بأيديكم من الأصنام، وفي هذه الآية دليل على أن أفعال العباد مخلوقة لله)[٣].

المبحث السابع
وسطيّة أهل السنة في مسألة أفعال العباد

هذه المسألة من أخطر مسائل القدر، ولقد زلت فيها أقدام، وحارت فيها عقول وأفهام، فقد اختلف الناس هل الأفعال والأعمال الصادرة عن العباد مخلوقة لله ﷻ مقدورة له، أم لا؟ وافترقوا في ذلك إلى طرفين وواسطة.

الطرف الأول (الجبرية): سموا بذلك نسبة إلى الجبر لقولهم به في باب القدر.

---

(١) أخرجه البخاري في خلق أفعال العباد والرد على الجهمية وأهل التعطيل: ٢٥، باب أفعال العباد.
(٢) انظر: المسائل والرسائل، للإمام أحمد (١/ ١٤٧ إلى ١٥٠).
(٣) زاد المسير لابن الجوزي (٧/ ٧٠) وانظر: جامع البيان للطبري (١٢/ ٧٥) وتفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤/ ١٥).

والجبر هو: إسناد فعل العبد إلى الله[١] أو نفي الفعل حقيقة عن العبد وإضافته إلى الرب تعالى[٢].

الطرف الثاني القدرية: وقولهم في أفعال العباد أنها غير مخلوقة لله ﷻ، وأنهم هم المحدثون لها دونه، وهذا أصل من أصول مذهب المعتزلة[٣].

الواسطة بين الطرفين (وهم أهل السنة):

قولهم في أفعال العباد هو:

١ ـ أنها مخلوقة لله ﷻ على الحقيقة.

٢ ـ وهي فعل للعباد على الحقيقة.

٣ ـ وأنهم قادرون على أفعالهم بقدرة حقيقية مؤثرة في وقوع الفعل منهم، والله هو الذي أقدرهم على ذلك، هذا هو مجمل قول أهل السنة في هذه المسألة، والذي عليه سلف الأمة وأئمتهم، قال محرر مذهب أهل السنة وضابط أصوله وقواعده بحق شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (وأما جمهور أهل السنة المتبعون للسلف والأئمة فيقولون: إن فعل العبد فعل له حقيقة، ولكنه مخلوق لله مفعول لله، لا يقولون له نفس فعل الله، ويفرقون بين الخلق والمخلوق والفعل والمفعول)[٤].

إن الجبرية محقون في قولهم: إن الله خالف أفعال العباد ومخطئون في قولهم: إن العبد ليس بفاعل لأفعاله في الحقيقة وإنما الفاعل هو الله.

والقدرية: محقون في إثباتهم قدرة العبد على أفعاله، وفعله لها ومسؤوليته عنها.

ومخطئون في قولهم: إن العبد خالق أفعاله، وإن الله ليس بخالق لأفعال العبيد، فأثبتوا خالقين مع الله[٥].

وأهل السنة: قالوا: بما مع الطائفتين من حق فقالوا: الله خالق أفعال العباد على

---

(١) التعريفات للجرجاني (٧٤).
(٢) انظر: الملل والنحل (١/ ٨٥).
(٣) انظر: شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار (٧٧٢).
(٤) انظر: منهاج السنة (٢/ ٢٩٨).
(٥) وسطيَّة أهل السنة بين الفرق (٣٨١).

الحقيقة؛ لأن العباد خلق له وأفعال المخلوقين مخلوقة، لقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (الصافات: ٩٦) وقول النبي ﷺ: «إن الله يصنع كل صانع وصنعته»[١].

وقالوا: العبد فاعل لفعله حقيقة، وقادر عليه بإقدار الله له عليه، والله أثبت للعبيد فعلاً فقال: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ (البقرة: ١٩٧) وقال: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ (هود: ٣٦) ونحو ذلك فلم ينفوا فعل العبد أصلاً كما قالت الجبرية، ولم يجعلوا العباد خالفين لأفعالهم من دون الله ﷻ كما قالت القدرية.

فهدى الله أهل السنة لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، وعملوا بجميع النصوص الواردة في الباب، ولم يضربوا بعضها ببعض، فإن الخبرية عملوا بالنصوص الدالة على أنه خالق كل شيء وأن كل شيء بقدر الله وقضائه ومشيئته، وأغفلوا ما دل منها على أن للعبد فعلاً وقدرة وإرادة.

والقدرية أخذوا بالنصوص الدالة على أن العبد هو الفاعل لفعله على الحقيقة وأن له قدرة وإرادة ومشيئة، واختياراً، وأهملوا ما دل منها على خلق الله لأفعال عبيده، وعموم قدرته عليها، ومشيئته لها، والحق هو إعمال جميع النصوص كل فيما دل عليه، وهو ما هُدِي له أهل السنة، فليس في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ تضارب أو تناقض، والجمع بين ما في ظاهره شيء من ذلك ممكن عند أهل العلم والحق[٢].

وهذا ما فعله أهل السنة، فكانوا بذلك وسطاً بين الطائفتين، وجاء قولهم هدى بين الضلالتين، ضلالة الجبر المفضي إلى تعطيل الأمر والنهي، وإبطال الثواب والعقاب، وضلالة نفي القدر الذي حاصله وجود خالقين من دون الله وتجويز أن يكون في ملكه ما لا يقدر عليه ولا يريده[٣].

المبحث الثامن
وسطيّة أهل السنة في معنى إرادة الله ومشيئته ومحبته ورضاه

تباينت مواقف الفرق، واختلفت أقوالها في باب إرادة الله ومشيئته، فضل في

(١) الإمام البخاري، خلق أفعال العباد، (٢٥).
(٢) انظر: وسطيّة أهل السنة بين الفرق (٣٨٢).
(٣) انظر: المرجع السابق (٣٨٣).

ذلك طوائف، وهدى الله المعتصمين بكتابه، وسنة نبيه لما اختلفوا فيه من الحق.

١ ـ **فقالت المعتزلة**: كل ما أراده الله وشاءه فقد أحبه ورضيه، فسووا بين إرادته ومشيئته وبين محبته وجعلوهما باباً واحداً ثم قالوا: الكفر والفسوق والعصيان لا يحبها ولا يرضاها، فلا يريدها ولا يشاؤها فأخرجوها من محيط إرادته وعموم مشيئته[١].

٢ ـ **وقالت الجبرية**: الكون كله بقضاء الله وقدره، والله هو الخالق الفاعل في الحقيقة، وإن الإنسان مجبور على أفعاله لا قدرة له ولا إرادة، فكل ما وقع في الكون يكون محبوباً مرضيّاً له[٢]، سواء في ذلك الإيمان والكفر والطاعات والمعاصي، إذ كل ذلك وقع بإرادته ومشيئته فسووا بين الإرادة والمحبة والرضى[٣].

لذلك احتجوا بالقدر على المعاصي، وقال قائلهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ (الأنعام: ١٤٨).

٣ ـ **وقال أهل السنة**: ليس معنى إرادة الله ومشيئته هو معنى محبته ورضاه؛ بل بينهما فرق لا بد من التنبه له، فإن الإرادة في كتاب الله نوعان:

أ ـ **إرادة شرعية دينية**: وهي تتضمن معنى المحبة والرضى، كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ (البقرة: ١٨٥) وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ (النساء: ٢٧ ـ ٢٨).

ب ـ **إرادة قدرية كونية خلقية**: وهي التي بمعنى المشيئة الشاملة لجميع الموجودات وذلك مثل الإرادة في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ (البقرة: ٢٥٣) وقوله: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ (هود: ٣٤) وقالوا: وإن كان يريد المعاصي إرادة كونية قدرية فهو لا يحبها ولا يرضاها ولا يأمر بها، بل يبغضها ويسخطها، ويكرهها وينهى عنها، هذا قول السلف والأئمة قاطبة فيفرقون بين إرادته التي تتضمن محبته ورضاه بين إرادته ومشيئته الكونية القدرية التي لا يلزم منها

---

(١) انظر: شرح الأصول الخمسة (٤٦٤).
(٢) انظر: شرح الطحاوية (٣٧٩).
(٣) نفس المصدر: (٢٧٩).

المحبة والرضى[١].

وبهذا التمييز بين الإرادتين يمتاز قول أهل السنة عن قول كل من فريقي القدرية والمعتزلة، والجبرية، الذين سووا بين الإرادة والمشيئة وبين المحبة والرضى، فضل المعتزلة إذ ذهبوا إلى القول بأنه يقع في ملك الله ما لا يريد ولا يشاء، وهلك أهل الجبر بقولهم: إن الكفر والشرك والعصيان محبوبة لله مرضية عنده، ومنشأ ضلال الفريقين إنما هو تسويتهم بين الإرادة والمشيئة وبين المحبة والرضى وجعلهم معنى إرادته هو معنى محبته ورضاه.

وهدى الله أهل السنة لأحسن القول فميزوا وفرقوا بين الأمرين، وخلصوا بالحق من بين الضلالتين، وهذا عنوان وسطيتهم المستمدة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وآية اعتدالهم واتزانهم[٢].

المبحث التاسع
أقسام التقدير التي جاءت في القرآن الكريم وسنة سيد المرسلين

١ ـ **التقدير العام**: وهو تقدير الرب لجميع الكائنات، بمعنى علمه بها، وكتابته لها ومشيئته، وخلقه لها، ويدل على هذا النوع أدلة كثيرة منها قوله تعالى:

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ (الحج: ٧٠).

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو ﷺ: أن النبي ﷺ قال: «**كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السمٰوات والأرض بخمسين ألف سنة**»، قال: «**وعرشه على الماء**»[٣].

٢ ـ **التقدير البشري**: وهو التقدير الذي أخذ الله فيه الميثاق على جميع البشر بأنه

---

(١) وسطيَّة أهل السنة بين الفرق (٣٨٧).
(٢) المرجع السابق.
(٣) رواه مسلم، كتاب القدر، باب حِجَاج آدم وموسى، (٤/ ٢٠٤٤) رقم الحديث (٢٦٥٣).

ربهم وأشهدهم على أنفسهم بذلك، والذي قدر الله فيه أهل السعادة وأهل الشقاوة.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ (الأعراف: ١٧٢).

٣ ـ وعن هشام بن حكيم[١] أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: أتبتدأ الأعمال أم قضى القضاء؟ قال رسول الله ﷺ: «**إن الله أخذ ذرية آدم من ظهورهم ثم أشهدهم على أنفسهم ثم أفاض بهم في كفيه فقال هؤلاء في الجنة، وهؤلاء في النار، فأهل الجنة ميسرون لعمل أهل الجنة، وأهل النار ميسرون لعمل أهل النار**»[٢].

٤ ـ **التقدير العمري**: وهو تقدير كل ما يجري على العبد في حياته إلى نهاية أجله، وكتابة شقاوته، أو سعادته، وقد دل على ذلك حديث الصادق المصدوق في الصحيحين عن ابن مسعود مرفوعاً: «**إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الملك، فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات، يكتب رزقه، وأجله وشقي أو سعيد**»[٣].

٥ ـ **التقدير السنوي**: وذلك في ليلة القدر في كل سنة ويدل عليه قوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾﴾ (الدخان: ٤) وقوله: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾﴾ (القدر: ٤ ـ ٦) يكتب فيها ـ أي هذه الليلة ـ ما يحدث في السنة من موت وحياة، وعز وذل، ورزق ومطر، حتى الحجاج يقال: يحج فلان، يحج فلان، روى هذا عن ابن عمر، وابن عباس، وكذا الحسن وسعيد بن جبير[٤].

---

(١) هو هشام بن حكيم بن حزام بن خويلد الأسدي، له صحبة ورواية، وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فكان عمر إذا رأى منكراً قال: أما ما عشت أنا وهشام بن حكيم فلا يكون هذا. توفي في أول خلافة معاوية، انظر: سير أعلام النبلاء (٣/ ٥٢).

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في كتاب السنة بتحقيق الشيخ الألباني رحمه الله (١/ ٧٣)، قال الشيخ الألباني: إسناده صحيح ورجاله كلهم ثقات.

(٣) البخاري، كتاب القدر، باب (١)، (٧/ ٢٦٧ رقم الحديث: ٦٥٩٤).

(٤) الإيمان بالقضاء والقدر (٥٥).

٦ ـ **التقدير اليومي**: ويدل عليه قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ (الرحمٰن: ٢٩) قيل في تفسيرها: (شأنه أن يعز ويذل، ويرفع ويخفض، ويعطي ويمنع، ويغني ويفقر، ويضحك ويبكي، ويميت ويحيي)[١] إلى غير ذلك.

المبحث العاشر
ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر

نسأل الله تعالى أن نكون قد وفقنا لإظهار ملامح الوسطيَّة في قضية الإيمان بالقضاء والقدر من خلال القرآن والسنة النبوية وأقوال العلماء حتى يكون المؤمن قد وضع نفسه على الصراط المستقيم والاستقامة على شرع الله في كل مسائله وأموره الدينية والدنيوية. ولا شك أن الفهم الصحيح والاعتقاد الراسخ بمفهوم أهل السنة والجماعة في قضية القضاء والقدر ليترتب عليه ثمار نافعة ومفيدة تعود على الأفراد والمجتمعات في الدنيا والآخرة، فمن تلك الثمرات ما يلي:

١ ـ **أداء عبادة الله ﷻ**: فالقدر مما تعبدنا الله ﷻ بالإيمان به.

٢ ـ **الإيمان بالقدر طريق الخلاص من الشرك**: فالمجوس زعموا أن النور خالق الخير، والظلمة خالقة الشر، والقدرية قالوا: إن الله لم يخلق أفعال العباد، فهم أثبتوا خالقين مع الله جل وعلا وهذا شرك، والإيمان بالقدر على الوجه الصحيح توحيد الله.

٣ ـ **الشجاعة والإقدام**: فالذي يؤمن بالقدر يعلم أنه لن يموت إلا إذا جاء أجله، ولا يناله إلا ما كتب له، فيقدم غير هياب ولا مبالٍ بما يناله من الأذى والمصائب في سبيل الله. كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ:

أي يـومـي مـن الـمـوت أفـر ... يـوم لا يـقـدر أو يـوم قـدر
يـوم مـا قـدر لا أرهـبـه ... وإذ قـدر لا يـنـجـي الـحـذر[٢]

٤ ـ **قوة الإيمان**: فالذي يؤمن بالقدر يقوى إيمانه، فلا يتخلى عنه ولا يتزعزع أو يتضعضع مهما ناله في ذلك السبيل.

---

(١) الإيمان بالقضاء والقدر (٢٩).
(٢) ديوان الإمام علي (٧٩ ـ ٨٠).

٥ ـ **الصبر والاحتساب ومواجهة الصعاب**: فالذين لا يؤمنون بالقدر ربما يؤدي الجزع ببعضهم إلى أن يكفروا بالله، وبعضهم يجن، وبعضهم يصبح موسوساً، وبعضهم يلجأ إلى المخدرات، وبعضهم يقتل نفسه، ولذلك يكثر الانتحار في البلاد التي لا يؤمن أهلها بالقدر كأمريكا، والسويد، والنرويج، بل إن الأمر وصل بالسويد إلى أن يفتحوا مستشفيات للانتحار، وأسباب ذلك ترجع لأمور تافهة، فبعضهم ينتحر بسبب تخلي خطيبته عنه، وبعضهم بسبب رسوبه في الامتحان وبعضهم بسبب وفاة المطرب الذي يحبه، وقد يكون الانتحار جماعياً.

والعجيب في الأمر أن غالبية المنتحرين ليسوا من الفقراء، بل هم من الطبقة الغنية، بل ويقع الانتحار في الأطباء النفسيين الذين يظن أنهم يجلبون السعادة للناس[1].

٦ ـ الهداية كما قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ (التغابن: ١١).

٧ ـ **الكرم**: فالذي يؤمن بالقدر، وأن الفقر والغنى بيد الله، وأنه لا يفتقر إلا إذا قدر الله له ذلك ـ فإنه ينفق ولا يبالي.

٨ ـ **الإخلاص**: فالذي يؤمن بالقدر لا يعمل لأجل الناس، لعلمه أنهم لن ينفعوه إلا بشيء قد كتبه الله له.

٩ ـ **إحسان الظن بالله وقوة الرجاء**: فالمؤمن بالقدر حسن الظن بالله، قوي الرجاء به في كل أحواله.

١٠ ـ **الخوف والحذر من الله**: فالمؤمن بالقدر على حذر من الله، إذ لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون، فلا يغتر بعمله مهما كان كثيراً، فإن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمٰن يقلبها حيث يشاء والخواتيم علمها عند الله ﷻ.

١١ ـ **الإيمان بالقدر يقضي على كثير من الأمراض** التي تفتك بالمجتمعات، وتزرع الأحقاد بينهما، وذلك مثل رذيلة الحسد، فالمؤمن لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله؛ لإيمان منه بأن الله هو الذي رزقهم وقدر لهم ذلك، فأعطى من شاء ومنع

---

(١) الإيمان بالقضاء والقدر، لمحمد إبراهيم الحمد (٢٥).

من شاء ابتلاءً وامتحاناً منه ﷻ وأنه حين يحسد غيره، إنما يعترض على القدر[١].

١٢ ـ **التوكل واليقين** والاستسلام لله والاعتماد عليه كما قال تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ (التوبة: ٥١).

١٣ ـ **عدم الاعتماد على الكهان والمنجمين والمشعوذين** والتمسح بأتربة القبور، ودعاء غير الله، وصرف شيء من أنواع العبادة لغير الله؛ لأنها لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضرّاً.

١٤ ـ **التواضع**: فالمؤمن بالقدر إذا رزقه الله بمال، أو جاه، أو علم، أو غير ذلك تواضع لله، لعلمه أن هذا من الله، ولو شاء الله لانتزعه منه، وإنه على كل شيء قدير.

١٥ ـ **ومن ثمرات الإيمان بالقدر**: السلامة من الاعتراض على أحكام الله الشرعية، وأقداره الكونية والتسليم لله في ذلك كله.

١٦ ـ **ومن ثمراته**: الجد والحزم في الأمور، والحرص على كل خير ديني أو دنيوي كما في قوله ﷺ: «**احرص على ما ينفعك واستعن بالله، ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا كان كذا وكذا ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل**»[٢].

١٧ ـ **الشكر**: فالمؤمن بالقدر يعلم أن ما به من نعمة فمن الله وحده، وأن الله هو الدافع لكل مكروه ونقمة، فينبعث بسبب ذلك شكر لله إذ هو المنعم المتفضل الذي قدر له ذلك، وهو المستحق للشكر وهذا لا يعني ألا يشكر الناس.

١٨ ـ **الرضا**: فيرضى بالله ربّاً مدبراً مشرعاً، فتمتلىء نفسه بالرضا عن ربه فإذا رضي بالله أرضاه الله ﷻ «فالرضا باب الله الأعظم وجنة الدنيا، ومستراح العابدين»[٣].

١٩ ـ يفرح المؤمن بالقدر بذلك الإيمان الذي حرم منه أمم كثيرة: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ (يونس: ٥٨).

٢٠ ـ **الاستقامة على المنهج سواء في السراء والضراء**: فالعباد فيهم قصور،

---

(١) انظر: مجلة البحوث الإسلامية عدد (٣٤): ٢٥٠ مبحث وسطيّة أهل السنة في القدر.
(٢) صحيح مسلم، كتاب القدر، باب الأمر بالقوة وترك العجز (٢٠٥٢ رقم ٢٦٦٤).
(٣) جامع العلوم والحكم لابن رجب (٢/ ٤٧٦).

ونقص وضعف لا يستقيمون على منهج سواء إلا من آمن بالقدر، فإن النعمة لا تبطره والمصيبة لا تقنطه.

٢١ ـ **عدم اليأس من انتصار الحق**: فالمؤمن بالقدر يعلم علم اليقين أن العاقبة للمتقين وإن قدر الله في ذلك نافذ لا محالة، فلا يدب اليأس إلى قلبه، ولا يعرف إليه طريقاً مهما احلولكت ظلمة الباطل.

٢٢ ـ **علو الهمة، وعدم الرضا بالدون، وعدم الرضا بالواقع الأليم**: فالمؤمن بالقدر تجده عالي الهمة لا يرضى بالدون ولا بالواقع الأليم المر، ولا يستسلم له محتجّاً بالقدر، إذ أن هذا ليس مجال الاحتجاج بالقدر؛ لأنه من المصائب، والاحتجاج بالقدر إنما يسوغ عند المصائب دون المعائب؛ بل إن إيمانه بالقدر يحتم عليه أن يسعى سعياً حثيثاً لتغيير هذا الواقع حسب قدرته واستطاعته[1].

٢٣ ـ الإيمان بالقدر على وجه الحقيقة يكشف الإنسان حكمة الله ﷻ فيما يقدره من خير أو شر قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢١٦).

وما أجمل قول الشاعر:

كم نعمة لا تستقل بشكرها ... لله في طي المكاره كامنه[2]

وقول الآخر:

تجري الأمور على حكم القضاء وفي ... طي الحوادث محبوب ومكروه

وربما سرني ما كنت أحذره ... وربما ساءني ما كنت أرجوه[2]

٢٤ ـ **ومن ثمراته عزة النفس والقناعة والتحرر من رق المخلوقين**:

فالمؤمن بالقدر يعلم أن رزقه مكتوب، وأنه لن يموت حتى يستوفي رزقه، ويدرك أن الله كافيه وحسبه ورازقه، وأن العباد مهما حاولوا إيصال الرزق له، أو منعه عنه فلن يستطيعوا إلا بشيء قد كتبه الله، فينبعث بذلك إلى القناعة وعزة النفس، والإجمال في

(١) الإيمان بالقضاء والقدر (٢٩).

(٢) انظر: جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى للغرناطي (٣/ ٥٢).

الطلب وترك التكالب على الدنيا والتحرر من رق المخلوقين، وقطع الطمع مما في أيديهم، والتوجه بالقلب إلى رب العالمين، وهذا أسس فلاحه ورأس نجاحه، ومن جميل ما يذكر في هذا المعنى ما ينسب لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ قوله:

أفادتني القناعة كل عز ... وهل عز أعز من القناعة
فصيرها لنفسك رأس مال ... وصير بعدها التقوى بضاعة
تحز ربحاً وتغنى عن بخيل ... وتنعم في الجنان بصبر ساعة[1]

٢٥ ـ سكون القلب وطمأنينة النفس وراحة البال: فهذه الأمور من ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر، وهي هدف منشود، فكل من على وجه البسيطة يبتغيها ويبحث عنها، وإنك لتجد عند خواص المسلمين من العلماء العاملين، والعباد القانتين المتبعين، من سكون القلب، وطمأنينة النفس ما لا يخطر على بال، ولا يدور حول ما يشبهه خيال، فلهم في ذلك الشأن القدح المعلى والنصيب الأوفى فهذا أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ﷺ يقول: (أصبحت ومالي سرور إلا في مواضع القضاء والقدر)[2].

وهذا شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ يقول: (إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة)[3].

ويقول مقولته المشهورة التي قالها عندما اقتيد إلى السجن: (ما يصنع أعدائي بي، أنا جنتي وبستاني في صدري، أينما رحلت فهي معي لا تفارقني، أنا حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة)[4].

بل إنك تجد عند عوام المسلمين من سكون القلب وراحة البال، وبرد اليقين ما لا تجده عند كبار الكتاب والمفكرين والأطباء من غير المسلمين فكم من الأطباء غير المسلمين على سبيل المثال من يعجب، ويذهب به العجب كل مذهب، وذلك إذا كان لديه مريض مسلم واكتشف أنه مصاب بداء خطير ـ كالسرطان مثلاً ـ فترى هذا الطبيب

(١) ديوان الإمام علي (١٢١ ـ ١٢٢).
(٢) جامع العلوم والحكم (١/ ٢٨٧)، سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم (٩٧).
(٣) الشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية لمرعي الحنبلي (٣٤).
(٤) شيخ الإسلام ابن تيمية، جهاده، ودعوته، عقيدته، أحمد القطان، محمد الزين (١٠١).

يحتار في كيفية إخبار هذا المريض، ومصارحته بعلته، فتجده يقدم رجلاً ويؤخر الأخرى، وتجده يمهد الطريق، ويضع المقامات، كل ذلك خشية من ردة فعل المريض إزاء هذا الخبر، وما أن يُعْلمه بمرضه ويخبره بعلته، إلا ويفاجأ بأن هذا المريض يستقبل هذا الخبر بنفس راضية، وصدر رحب، وسكينة وهدوء. لقد أدهش كثيراً من هؤلاء إيمان المسلمين بالقضاء والقدر فكتبوا في هذا الشأن، معبرين عن دهشتهم، مسجلين شهادتهم بقوة عزائم المسلمين، وارتفاع معنوياتهم، وحسن استقبالهم لصعوبات الحياة[1].

فهذه شهادة حق من قوم حرموا الإيمان بالله وبقضائه وقدره:

ومليحة شهدت لها ضرتها ... والفضل ما شهدت به الأعداء

ومن هؤلاء الكتاب الذين كتبوا في ذلك ـ الكاتب المشهور (ر.ن.س بودلي) مؤلف كتابي (رياح على الصحراء) و(الرسول) وأربعة عشر كتاباً أخرى، والذي أورد رأيه (ديل كارينجي) في كتابه (دع القلق وابدأ الحياة) في مقالة بعنوان (عشت في جنة الله) يقول بودلي: (في عام ١٩١٨م وليت ظهري العالم الذي عرفته طيلة حياتي، ويممت شطر أفريقيا الشمالية الغربية، حيث عشت بين الأعراب في الصحراء، وقضيت هنالك سبعة أعوام، وأتقنت خلالها لغة البدو، وكنت أرتدي زيهم، وآكل من طعامهم، وأتخذ مظاهرهم في الحياة، وغدوت مثلهم أمتلك أغناماً، وأنام كما ينامون في الخيام، وقد تعمقت في دراسة الإسلام، حتى إنني ألفت كتاباً عن محمد ﷺ عنوانه (الرسول)، وكانت تلك الأعوام السبعة التي قضيتها مع هؤلاء البدو الرحل من أمتع سني حياتي، وأحفلها بالسلام، والاطمئنان، والرضا بالحياة، وقد تعلمت من عرب الصحراء كيف أتغلب على القلق، فهم ـ بوصفهم مسلمين ـ يؤمنون بالقضاء والقدر، وقد ساعدهم هذا الإيمان على العيش في أمان، وأخذ الحياة مأخذاً سهلاً هيناً، فهم لا يتعجلون أمراً، ولا يلقون بأنفسهم بين براثين الهم قلقاً على أمر، إنهم يؤمنون بأن (ما قدر يكون) وأن الفرد منهم (لن يصيبه إلا ما كتب الله له) وليس معنى هذا أنهم يتواكلون أو يقفون في وجه الكارثة مكتوفي الأيادي كلا)[1].

(١) انظر: الإيمان بالقضاء والقدر (٣٢).

ثم أردف قائلاً: (ودعني أضرب لك مثلاً لما أعنيه (هبت ذات يوم عاصفة عاتية حملت رمال وادي (الرون) في فرنسا، وكانت العاصفة حارة شديدة الحرارة، ولكن العرب لم يشكو إطلاقاً، فقد هزوا أكتافهم، قالوا كلمتهم المأثورة (قضاء مكتوب) لكنهم ما أن مرت العاصفة حتى اندفعوا إلى العمل بنشاط كبير فذبحوا صغار الخراف قبل أن يودي القيظ بحياتهم، ثم ساقوا الماشية إلى الجنوب نحو الماء فعلوا هذا كله في صمت وهدوء، دون أن تبدو من أحدهم شكوى، قال رئيس القبيلة الشيخ: لم نفقد الشيء الكثير، فقد كنا خليقين بأن نفقد كل شيء ولكن حمداً لله وشكراً، فإن لدينا نحو أربعين في المائة من ماشيتنا، وفي استطاعتنا أن نبدأ بها عملنا من جديد)[١].

وثمة حادثة أخرى، فقد كنا نقطع الصحراء بالسيارة يوماً، فانفجرت إحدى الإطارات، وكان السائق قد نسي استحضار إطار احتياطي، وتولاني الغضب، وانتابني القلق والهم، وسألت صاحبي من الأعراب: ماذا وعسى أن نفعل؟ فذكرني بأن الاندفاع إلى الغضب لن يجدي فتيلاً، بل هو خليق أن يدفع الإنسان إلى الطيش والحمق، ومن ثم درجت بنا السيارة وهي تجري على ثلاث إطارات ليس إلا، لكنها ما لبثت أن كفت عن السير، وعلمت أن البنزين قد نفذ، وهنالك أيضاً لم تثر ثائرة أحد من رفاقي الأعراب، ولا فارقهم هدوؤهم، بل مضوا يقطعون الطريق سيراً على الأقدام[٢].

وبعد أن استعرض بودلي تجربته مع عرب الصحراء علق بقوله: (قد أقنعتني الأعوام السبعة التي قضيتها في الصحراء بين الأعراب الرحل ـ أن مرضى النفوس، والسكيرين الذين تحفل بهم أمريكا وأوروبا ـ ما هم إلا ضحايا المدنية التي تتخذ السرعة أساساً لها، إنني لم أعان شيئاً من القلق قط وأنا أعيش في الصحراء، بل هنالك في جنة الله وجدت السكينة، والقناعة، والرضا[٣].

وأخيراً اختتم كلامه بقوله: (وخلاصة القول أنني بعد انقضاء سبعة عشر عاماً

(١) دع القلق وابدأ الحياة، ديل كارنيجي (٢٩٠، ٢٩١).
(٢) دع القلق وابدأ الحياة،(٢٩٠ ـ ٢٩١).
(٣) نفس المصدر السابق (٢٩١ ـ ٢٩٥).

على مغادرتي الصحراء ـ ما زلت أتخذ موقف العرب حيال قضاء الله، فأقبل الحوادث التي لا حيلة لي فيها بالهدوء والامتثال والسكينة، ولقد أفلحت هذه الطباع التي اكتسبتها من العرب في تهدئة أعصابي أكثر مما تفلح آلاف المسكنات والعقاقير[1].

وبهذا نكون قد أوضحنا ملامح وسطيَّة القرآن في باب الاعتقاد والله الهادي إلى سواء السبيل.

ونرجو من القارىء الكريم أن لا ينسى العبد الفقير إلى الله كاتب هذه الأسطر بالدعاء في ظهر الغيب بالمغفرة والرحمة والشهادة في سبيل الله تعالى وأن يكرمه بالصدقة الجارية بعد وفاته إنه ولي ذلك والقادر عليه.

* * *

(١) انظر: حقيقة البدعة وأحكامها (١/ ١٥).

خلاصة الجزء الثاني

١ - إن القرآن الكريم كلام الله، منه بدأ بلا كيفية قولاً، وأنزله على رسله وحياً، وصدقه المؤمنون على ذلك حقّاً وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة، ليس بمخلوق ككلام البرية.

٢ - إن سورة الفاتحة تقرر منهج الوسطيَّة من أولها إلى آخرها ووضعت القاعدة والمنطلق ورسمت منهج الوسطيَّة وحددت معالمه ثم جاءت الآيات بعد ذلك مقررة لذلك وداعية له.

٣ - إن كلمة العقيدة في الاصطلاح: لم تكن موجودة في الكتاب والسنة، ولا في أمهات المعاجم وأن أول من تم الوقوف على ذكره لجمعها (عقائد) هو القشيري سنة ٤٣٧هـ.

٤ - ومصطلح العقيدة يشمل التوحيد، والإيمان، والإسلام، والغيبيات، والنبوات، والقدر والأخبار، وأصوله الأحكام القطعية، وسائر أصول الدين، والاعتقاد، ويتبعه الرد على أهل الأهواء والبدع وسائر الملل والنحل والمذاهب الضالة ومن مسميات علم العقائد التوحيد، والسنة، وأصول الدين.

٥ - إن العقيدة الصحيحة لا توجد إلا في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ؛ لأنهما محفوظتان لحفظ الله لهما.

٦ - إن معرفة حقيقة أسماء الله وصفاته وأفعاله من أهم العلوم التي يجب أن يحرص على معرفتها العبد؛ لأن هذا العلم إذا رسخ في القلب أوجب خشية الله لا محالة.

٧ - إن القرآن الكريم أشار إلى أسباب الإيمان وثمراته في كتاب الله تعالى حتى تتطلع القلوب وتشتاق النفوس إلى الأخذ بأسباب الإيمان وتحرص على ثمراته.

٨ ـ إن الإيمان بالملائكة أصل من أصول الاعتقاد، لا يتم الإيمان إلا به، والملائكة من عوالم الغيب التي امتدح الله المؤمنين بها، تصديقاً لخبر الله سبحانه وإخبار رسوله ﷺ.

٩ ـ إن من أركان الإيمان الاعتقاد بالكتب السماوية وأنها من عند الله ﷻ، إلا أن البشر هناك من أنكر الكتب السماوية جملة وهم الملاحدة، وهناك من حرَّف الكتب السماوية وأضاف إليها ما لم ينزل به من سلطان وهم اليهود والنصارى وقعوا في الغلو وفي الإفراط وابتعدوا عن الصراط المستقيم.

١٠ ـ إن القرآن الكريم رسم لهذه الأمة الاستقامة فاستجابت لأمر الله ورسوله ﷺ وآمنت برسل الله جميعاً وشهد الله لها بهذا الإيمان في محكم كتابه.

١١ ـ إن القرآن الكريم والسنة النبوية مملوءة بذكر أحوال اليوم الآخر وتفاصيل ما فيه وتقرير ذلك بالأخبار الصادقة والأمثال المضروبة للاعتبار والإرشاد.

١٢ ـ من وسطيَّة القرآن الكريم وحكمته وإرشاده إلى الصراط المستقيم بيانه مراتب القدر والتي تسمى عند العلماء بأركانه.

١٣ ـ إن منهج أهل السنة في باب القدر وسط بين الإفراط والتفريط ويظهر ذلك في مسألة أفعال العباد وأنها مخلوقة لله ﷻ على الحقيقة، وهي فعل للعباد على الحقيقة وأنهم قادرون على أفعالهم بقدرة حقيقية مؤثرة في وقوع الفعل منهم، والله هو الذي أقدرهم على ذلك.

١٤ ـ إن مفهوم الإرادة في كتاب الله نوعان:

أ ـ إرادة شرعية دينية.

ب ـ إرادة قدرية كونية خلقية وفهمهما له أهمية عظيمة في استيعاب القضاء والقدر.

١٥ ـ إن الفهم الصحيح والاعتقاد الراسخ بمفهوم أهل السنة والجماعة في قضية القضاء والقدر ليترتب عليه ثمار نافعة ومفيدة تعود على الأفراد والمجتمعات في الدنيا والآخرة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين